**/ حازم القرطاجني(ت684ھ)**.

**أ-الصناعة الأدبية :**

يرى حازم أن الشعر" صناعة آلتها الطبع "(3)، والطبع " استكمال للنفس في فهم اسرار الكلام" (4)، إلا أن الطبع وحده لا يمكن أن يصنع شاعرا؛ لأن " مآخذ القول في الإرتجال قريبة سهلة لكون ضيق الوقت يمنع من بعد المذهب في ذلك ... يتخيل المرتجل ما يريد أن يقوله في وصف اليء ثم يأخذ في نظم ذلك الشيء ...ويتسامح في كثير مما يتأنق فيه المروي، ويقبل كثيرا مما لا يقبله المهذب المنقح؛ لضيق الوقت عليه وإتساعه على ذلك . فأما الروية فإن المباحث فيها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر : مفتاح العلوم : 426، 427،429، 431.

(2) ينظر: كتاب الصناعتين : 396.

(3) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 199.

(4) م . ن : 199.

كثيرة والمذاهب فيها بعيدة؛ لكون الزمان فيها يتسع لطلب الغايات المستطاعة من بناء الكلام على ما قدمته من أصناف محاسن الألفاظ والمعاني، وإبداع النظم، والتأنق في إحكام الإسلوب"(1) .

والصناعة عندة تقتضي الروية، والإختيارالأحسن والأليق، وذلك مما يستدعيه التأنق الذي هو" طلب الغاية القصوى من الإبداع في وضع بعض أجزاء العبارات والمعاني من بعض، وتحسين هيئات الكلام في جميع ذلك، فإن العبارة إذا استجدت مادتها وتأنق الناظم في تحسين الهيأة التأليفية فيها، وقعت من النفوس أحسن موقع"(2)، والقرطاجني بهذا يوجه المبدع – في دور تعليمي- بالإحاطة بطرق إختيار الألفاظ، والتراكيب، والأغراض، والأوزان بما يناسب الكلام الشعري أثناء نظمه ، وعلى ذلك تكون الصناعة عنده جهد يبذله الأديب؛ لإحكام ما يصدر عن الطبع، لأن الإرتجال لا يؤدي ذلك الإحكام في القول، ومن " لا يستجد ولا يتأنق فيه، فليس يصدر عن مطبوع بروية "(3)، ولأن الطباع تضطرب وتفسد مثل الألسنة التي يدخلها اللحن، والطبع الذي يعنيه حازم هوطبع سليم يمتلك القدرة، والقوة الفكرية، والإهتداءات الخاطرية(4)، و قوى الإبداع حصرها في ثلاث وهي:

**القوة الحافظة**: ويمكن تسميتها بالذاكرة الواعية، وهي " أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازا بعضها عن بعض، محفوظا كلها في نصابه، فإذا أراد مثلا أن يقول غرضا ما في نسيب أو مديح أو غير ذلك وجد خياله اللائق به قد أهبته له القوة الحافظة بكون صور الأشياء مترتبة فيها على حد ما وقعت عليه في الوجود..."(5)،وهذه القوة إحدى القوى الذهنية وظيفتها حفظ تلك الصور أو المدركات الحسية، ولا يقتصر على حفظ تلك الصور منتظمة و مرتبة، بل تتصرف في تلك المدركات المختزنة، فتؤيد الشاعر بالمناسب منها؛ لغرض القول إذ يتم الكشف عن ماهيتها من خلال التفكير و إجالة الخاطر فيها، و هو أمر لا يتسنى لجميع الشعراء؛ لأن" كثير من خواطر الشعراء تكون معتكرة الخيالات،غير منتظمة التصور، فإذا أجال خاطره في أوصاف الأشياء وخيالاتهـا أشتبهـت عليـه واختلطـت وأخـذ منــها غــير ما يليـق بمقصده"(6) . ومنهـم مـن تعتكـر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 214- 215.

(2) م . ن : 215.

(3) م . ن : 215.

(4) ينظر : م . ن : 199.

(5) م . ن : 42.

(6) م . ن : 42- 43.

خيالاتهم، فيستعمل -بسبب عدم انتظام تلك الصور في ذهنه- صورا لا تناسب ما هو بصدد الحديث عنه.

**القوة المائزة** : يمكن أن نسميها بنسق الأداء و "هي التي بها يميز الإنسان ما يلائم الموضع، والنظم، والأسلوب، والغرض، مما لا يلائم ذلك وما يصح"(1)، وهذه القوة الذهنية تقوم بعملية الإنتقاء و المفاضلة بين الصور،و ما يتناسب منها مع الموضوع و الغرض الشعري، وطريقة نظمه، و التعبيرعنه.

ترتبط القوة) المائزة و الحافظة( في كونهما تتعلقان بمرحلة التفكير الشعري إذ بواسطة هذه القوة يكون بإمكان الشاعر أن يختار الصور المناسبة للغرض المنظوم فيه، و كذلك التركيب المستعمل و الإسلوب المتبع حتى يتماشى مع الغرض المنشود، و هو تحقيق الإستجابة التخييلية .

**القوة الصانعة :** هي القوى التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الإسلوبية إلى بعض، والتدرج من بعضها إلى بعض، و بالجملة التي تتولى جميع ما تلتئم به آليات هذه الصناعة"(2) . تعمل هذه القوة على إتمام عمل القوتين السابقتين؛ لتتولى هي عملية الإنشاء الفعلي للعمل الشعري وإبداعه، و ذلك بقيامها تشكيل التراكيب النظمية، و إسناد الألفاظ إلى بعضها بعض بشكل يجعلها أكثر تعبيرا عن المعنى المراد، و إنتقاء الإسلوب الذي يتماشى و الموضوع ، و بمعنى آخر إنجاز الشكل النهائي الذي تقدم عليه القصيدة.

أشار حازمٌ إلى أنّ إنتاج الإبداع الشعري مرتبطٌ بتوفُّر عشر قوى لدى الشاعر - تقع ضمن القوّة الصانعة والمائزة - تعود في مجملها إلى قوة المحاكاة والتشبيه والتصوير، فضلاً عن قوة صناعة الإسلوب التي ترجع إلى التناسب بين المعاني (أوالجهات)، والتنويع في التعبير (الإلتفات)، والقدرة على الربط بين الفصول والأبيات، هذه القوى - كما يراها القرطاجني - ضرورية للشاعر، ولكل قوة وظيفة تؤديها في إنتاج النص الشعري، وهي وظائف متلازمة إذا أختل منها شيء اختل الإبداع. ووصف هذه القوة بالصانعة، والشعر بالصناعة دال على أنها تصنع الشعر، وهي تقوم بذلك بعد أن يمر الشعر بمرحلتين:

**الأولى/** مرحلة الحفظ والاستظهار لما في الذاكرة الواعية من مخزون فكري وخيالي.

**الثانية/** مرحلة التأليف بين أجزاء هذا المخزون، وهو تأليف مصحوب بعملية التمييز التي تقوم بها القوة المائزة، ثم مرحلة التصنيع التي تقوم بها القوة الصانعة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 42- 43.

(2) م . ن : 43.

ومع تقدير حازم القرطاجني لكل العناصر الفنية التي تتولد منها العملية الإبداعية فأنه يؤكد في أساسها على ركيزتين متعاضدتين في النص الأدبي هما: (التخييل، وحسن التأليف) وما بينهما من تعاضد؛ إذ إن كلاً منهما لا تحقق فاعليته في النص الشعري بعيداً عن الآخر " فليست المحاكاة في كل موضع تبلغ الغاية القصوى من هَزِّ النفوس وتحريكها، بل تؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الإبداع فيها، وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها، وبقدر ما تجد النفوس مستعدة لقبول المحاكاة والتأثر لها"(1) .

ومع تأكيده عملية التواشج بين التخييل والتأليف، يدرك أيضا أهمية إكتساب هاتين العمليتين من طول النظر فيما هو موجود، والدربة على بنائهما، وأن أي قصور في عملية الإبداع الشعري إنما يأتي من هذا الجانب؛ لذلك يفسر عملية تراجع الجمال الفني الشعري عند بعض الشعراء إلى عدم نسجهم على منوال غيرهم من الفحول، أو تشربهم طرق إبداعهم وصياغتهم الشعرية، "إذ لم يوجد منهم على طول هذه المدة من نحا نحو الفحول، ولا من ذهب مذهبهم في تأصيل مبادئ الكلام، وإحكام وضعه وانتقاء مواده التي يجب نحته منها، فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم "(2) ، لذلك كانت ملازمة الشاعر لغيره من الفحول، وتشرب طرائقهم في إجادة الإختيار وحسن التأليف، ضرورة لا يمكن تجاوزها لمن أراد قول الشعر " وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة، وتعلَّم منه قوانين النظم، واستفاد منه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية"(3) .

وليست متابعة الشاعر لغيره من الشعراء، والنسج على منواله تلغي خصوصيته الإبداعية وتميزه الفني، والشعراء بطبيعتهم ـ متفاوتون في إنتاجهم وفي مستواهم الفني؛ لذلك كانت مراتبهم ـ عنده ـ متوقفة على مدى اختراعهم للمعاني أو ابتذالهم لها (4) ،فالتوصل إلى فهم أغوار وأسرار العملية الإبداعية، وأسباب نجاح هؤلاء الشعراء القدامى من شأنه أن يوجه العملية الإبداعية وجهة سليمة .

كان حازم على وعي كبير بحقيقة الشعرية إذ أدرك أنها لا تكمن في القول الشعري فحسب، وإنما تتجاوزه إلى كثير من الأعمال الأدبية، ولكن بنسب متفاوتة تبلغ أقصى درجاتها في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 121.

(2) م . ن : 10.

(3) م . ن : 27.

(4) ينظر : م . ن : 192، 196.

اللغة الشعرية، وأدناها في لغة الخطابة والنثر، فـ"صناعة الشعر تستعمل يسيراً من الأقوال الخطابية، كما أن الخطابة تستعمل يسيراً من الأقوال الشعرية؛ لتعتضد المحاكاة في هذه بالإقناع، والإقناع في تلك بالمحاكاة"(1)، ولكن بشرط ألا يطغى جانب الإقناع على الشعرية في الشعر وبالعكس، أي تظل الشعرية هي الوظيفة السائدة في النص الشعري، والإقناع هو الوظيفة السائدة في النص النثري.

والقرطاجني في صنعته الشعرية لايخرج على نهج العسكري في تحديد الضوابط الفنية التي يعول عليها في التعامل مع النص الأدبي، و إتباعها في صناعته الشعرية، وذلك بأن يفكر أولا معملا ذهنه لتصوير أشياء مختلفة، ثم يعمل على نقل هذا التصور إلى صور مجسدة للمعنى الذي يريده، و بهذا يكون النظم قد مر بالتفكير قبل البدء في الصياغة (2)، فتوجيه الذهن يكون :

* لأحضار المعاني التي يريد نظمها، وهي عملية أرادية تدل على تدخل التفكيرفي قوة الطبع الكامنة عند نظم الشعر.
* لتوظيف القوافي التي تتوافق معه، وفي إختيار الوزن الذي يوضح المعنى ويكشف عنه.
* توظيف الطاقة الذهنية لإختيارالألفاظ من المخزون اللغوي بحرية، فتأتي الألفاظ سهلة، حسنة ، وبذلك تتحقق فنية التعبير.
* تدخل الذهن الواعي في فحص ما قد آداه طبع الشاعر، وأنتجته فكرته ،حتى تبلغ القصيدة مرحلة الجودة التي تتمثل في (إستواءالأجزاء)،وتشابه أوائلها وأواخرها، وهذا العمل يمنح القصيدة قيمة عالية .

و في هذا الكلام حديث عن الصورة التي يتخذها المعنى بعد صياغته، والتعبير عنه من خلال الألفاظ، إشارة خفية إلى أن الصورة المنتجة مصدرها الخيال.

ومن المقاييس التي كان يعتمدها العسكري في تقديره الآثار الأدبية، (الترابط والإئتلاف) بين عناصرالنص الأدبي، ومكوناته؛ كونها من سمات الكلام الجيد(3)، ولا شك أن لهذا المقياس نصيبا من مفهوم (النظم)، والعملية الإبداعية عند العسكري عملية عقلية قائمة على (الإختيار)، واختيـارالألفـاظ، وإستبـدال بعضها مـن بعض عـند الضرورة، وربـط أول الشعر بآخـره يوجـب

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 293.

(2) ينظر : كتاب الصناعتين : 128.

(3) ينظر : م . ن : 129.

إحكام النص وضبطه(1).

وكما كان العسكري موجها ومعلما في صناعته للمبدع جاء القرطاجني ﺑ(منهاجه)؛ ليكون هاديا في عملية تلقي النص، أما(سراجه)، فكان يهدف الى توجيه العملية الإبداعية لذا نره يوجه المبدع - في دور تعليمي - إلى الإحاطة بطرق إختيار الألفاظ، والتراكيب، والأغراض، والأوزان بما يناسب الكلام الشعري أثناء نظمه .

وما يطرحه حازم من قوانين وحدود لمفهوم الشعر يذكرنا ببعض جوانب نظرية (عمود الشعر) التي سار على هديها العسكري من قبل في جل صناعته والتي كانت المعيار الأمثل لقول الشعر وجودته .